

سلسلة  
تفاهير الأسيجة

سلسلة  
تفاهير الأسيوطي



الخبير العربي  
في الفكر السياسي الإسلامي

الحقوق محفوظة لـ: نحو القمة للطباعة والنشر (سورية)

الطبعة الأولى: 1431-2010

**الجانب المدني في الفكر السياسي الإسلامي (سلسلة مفاهيم أساسية)**

تصنيف الكتاب: فكر سياسي

تأليف: أ.د. عماد الدين الرشيد [dr.imad1965@yahoo.com](mailto:dr.imad1965@yahoo.com)

عدد كلمات الكتاب: **7245**

متوسط القراءة: **200** كلمة في الدقيقة.

الوقت المتوقع لقراءة الكتاب: **36** دقيقة.

**تطلب جميع أعداد السلسلة من :**

مكتبة بيت العلم، حمص، هاتف: **00963 31 2481077**

دار العوثاني، دمشق، هاتف: **00963 11 2453638**

دار الفارابي، دمشق، هاتف: **00963 11 2226786**

دار البرهان، الإمارات، هاتف: **0505667381**

*U K-London- Books Plus library- Tel: +442077239888*

اطلب جميع أعداد السلسلة من: **00963 932 467792**

أعد هذه السلسلة للنشر عصام عبد المولى [isamabd@hotmail.com](mailto:isamabd@hotmail.com)

# الطاهر الدرني

## في الفكر السياسي الإسلامي

عبد الرحمن الرشيد

سلسلة  
تفاهير الأسيوط

## المؤلف في سطور:

- عماد الدين محمد الرشيد.
- من مواليد مدينة فيق، القنيطرة، 1965
- إجازة من كلية الشريعة، جامعة دمشق.
- دبلوم التأهيل التربوي، كلية التربية، جامعة دمشق.
- دكتوراه في الشريعة (حديث) جامعة الجنان 1998
- دكتوراه في الشريعة (أصول الفقه) جامعة دمشق، 1999
- نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة القدس الدولية- فرع سورية.
- نائب عميد كلية الشريعة للشؤون العلمية بجامعة دمشق سابقاً.
- أستاذ معار في كلية الشريعة والقانون، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن.
- عضو المعهد الأمريكي العالمي لإدارة المشايخ (P.M.I)
- باحث ومدير مركز الدراسات الأكاديمية، دمشق - نيجيرية.
- أقام العديد من الدورات المكثفة في أصول الفقه، والحديث الشريف، ومقاصد الشريعة، في سوريا، ولبنان، والأردن، ونيجيرية.
- ألقى الكثير من المحاضرات الدعوية في المراكز الثقافية في المحافظات.
- المؤلفات المنشورة:
  1. نظرية نقد الرجال ومكانتها في ضوء البحث العلمي.
  2. أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص.
  3. الأدلة الراجعة على فرضية قراءة الفاتحة.
  4. سلسلة مفاهيم أساسية صدر منها:

البدعة، اختلاف الفقهاء، الاجتهاد والتقليد، التأويل، المواطنة، المرجعية، نقد المتن، الحرية، الجانب المدني في الفكر السياسي الإسلامي، الحج.

5. سلاسل تربوية للأطفال..

• أ - سلسلة: (جابر - لؤن) صدر منها:

1<sup>ف</sup> - المفاهيم (2-1) 2<sup>ف</sup> - الصحة و التغذية (2-1)

3<sup>ف</sup> - مواقف تربوية (2-1) 4<sup>ف</sup> - مواقف اجتماعية (2-1)

• ب - سلسلة: (مغامرات جابر (2،1))

6. من كتبه المنشورة ضمن سلسلة البناء والترشيد:

الزواج في الكتاب والسنة	أسس الزواج	الصيام
اليهود تحت المجهر	النفس البشرية	العزوبة إلى أين
رحلة مع الطفولة	رفرفات العيد	الأسوة الحسنة
العلاقة بين الأبوة والبنوة	ثقافة الخطيب	الإعلام المعاصر
العلاقات الداخلية في الأسرة	الإبداع	صناعة الهدف
أثر أفلام الكرتون في تربية الطفل		المشكلات الزوجية

• الموقع الإلكتروني للدكتور: [www.imadimad.com](http://www.imadimad.com)

• من المبادئ التي يدعو إليها:

الوحدة الإسلامية، والوسطية، والانفتاح على الآخرين، والاعتدال، والثبت، والحكمة في الدعوة..

**نسأل الله أن يبارك في مرجعياتنا، ويمتّعنا بهم..**





## مقدمة المؤلف:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد ازداد التشكيك في إنسانية الإسلام في الآونة الأخيرة، وصلاحيته لمواكبة العصر، وليس الأمر نابعاً من مشكلة بعينها، بل من خشية لم تعد خافية - من الجهات الغربية التي أصبحت تُبشر بالفكر العولمي - من تنامي المد الإسلامي، وعودة شعوب المنطقة إلى إسلامها من جديد.

فبدأت تضح الشبهات حول الإسلام، ولكن بطريقة تختلف عما كان في مرحلة الحرب الباردة، حيث تطوع اليساريون في تلك الآونة لهذه المهمة، وكان الصدام مباشراً. أما الآن فلا بد من البحث عن متطوعين جدد، وما أيسر ذلك!!

ولست أتكلم من منظور نظرية المؤامرة، فالأمر أوضح من ذلك، فأنا أصف واقعاً ما عاد خافياً على أحد، وقد أراحتني تصريحات الكثير من سياسيي الغرب ومفكريه وقادته الدينيين من أن أتجشم عناء إثبات ذلك..

وللإنصاف فإن المتطوعين القدامى أجدر بالاحترام من المتطوعين الجدد؛ لأن اليساريين كانوا يخاصمون عن أنفسهم أصالة واعتقاداً، وأما الجدد فأجراء رخيصون.

والجديد في طبيعة هذه الحملات أنها استخدمت المؤسسات الدولية، كمنظمات الأمم المتحدة في عمليات التشويش والتغيير القسري، بأسماء مختلفة، كالحرب على الإرهاب، والدفاع عن حقوق الإنسان، ومحكمة مرتكبي جرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، وكأن البشرية لا تعرف من أباد سكان أستراليا الأصليين!! أو الهنود الحمر في أمريكا الشمالية!! أو هَجَّر الفلسطينيين، وفعل ما فعل!!

وهذا إيذان صريح بسقوط النظام الدولي ومؤسساته، وحتى القانون الدولي الإنساني، الأمر الذي يدعو إلى ضرورة البحث عن نظام دولي يُعبر عن الإنسان بتنوع ثقافته وحضاراته وأعرافه تعبيراً صادقاً، وتوزن فيه الدول بثقل الحاضر والماضي واستشراف المستقبل. ولئن أحس العالم اليوم بفساد النظام البيئي، وبدأت دول العالم تلتقي من أجل إيجاد الحلول لهذه المشكلة، فإن فساد النظام السياسي العالمي اليوم أشد خطراً من الفساد البيئي..

فينبغي أن تسارع أمم الأرض إلى اللقاء والبحث عن آليات تدرأ مخاطر فساد النظام السياسي العالمي، الذي بات يهدد استقرار العالم بأسره.

فعلى الرغم من أن المسوح الحضارية تكسو هذا النظام، فإن رائحة العنصرية المتنتنة تفوح من كل زواياه، ولاسيما أن ممارسات الفريق العولمي، وعدم قدرته على ضبط مشاعر الكراهية للآخر كشفت عن طبيعته، وطبيعة الصراع الحضاري، وأفسدت عليه صورته النمطية المتحضرة، التي لطالما كان يحافظ على بقائها في أذهان الآخرين، لتكون أنموذجاً يتطلعون إلى محاكاته!!

إن هذه الدعوة المتواضعة لا أقصد منها الاستخفاف بالغرب الذي قدم للعالم الكثير من الإنجازات، والتي تفوق ما أحدثه فيه من آلام، بل هي دعوة إلى الصحو من سكر القوة ووهم العظمة، إلى الإحساس بالمسؤولية نحو الإنسان، بوصفه سيد الأرض ومالكها وبانيها.

إنها دعوة إلى كلمة سواء تبين لسيد الأرض أنه عبد لسيد الأرض والسماء، رب العالمين.

وهذه العجالة تعرض نموذجاً لنظام سياسي، صدر عن معين الوحي، واحترم الإنسان لوصف البشرية فيه، فجمع في ثناياه المؤمنين به عقيدة، والراغبين في بناء الحياة من خلاله ولو لم يكونوا من أبناء عقيدته، وقدم نموذجاً واقعياً لتعايش لم تلمسه البشرية في غيره، بل ولم تجده في حقبات التاريخ السابق، وأقام دولة نموذجية من خلال هذا المنظور. وعلى الرغم من تراجع التمسك بمبادئه في العصور اللاحقة، فلا تزال الدول التي تدين به عقيدة اليوم -وعلى الرغم من تخلفها- تنعم بدفقة التعايش التي أرساها الرعيل الأول من هذه الأمة.

أحبت أن أناقش في هذه الوريقات البعد المدني في الفكر السياسي الإسلامي؛ لأبين أحقية النظام السياسي الإسلامي بأن يسمى بالنظام المدني.

أسأل الله ﷻ أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن ينفعنا بها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عماؤل الزين الزبير

عمان ليلة الجمعة: 6 جمادى الثانية 1431 الموافق لـ: 19 / 5 / 2010 م

## مدخل:

لا نعني بالجانب المدني الجانب الحضاري، بمعنى أن المدنية هي الحضارة، فإن الجانب الحضاري له مجال آخر يدرس فيه..

كما لا نعني بالجانب المدني ما يقابل العسكري.

وإنما نعني بالمدني مصطلحاً سياسياً يُراد به ما يرتبط بالمجتمع من مؤسسات غير حكومية تُعنى بالشأن العام، وتسهم في تطوير المجتمع.

فالإسلام بوصفه ديناً ونظاماً للحياة له جوانب متعددة، فهو بالإضافة إلى كونه ديناً يفتخر به أصحابه ومن ينتمون إليه عقيدة، هو تراكم اجتمع منذ أن صدع النبي ﷺ، وجهر بالدعوة في مكة المكرمة إلى هذا اليوم.

فُنبت من هذا التراكم جملة علاقات تجاوزت بالإسلام عن أن يكون مجرد دين أو عقيدة إلى أن أصبح ثقافة وديناً وحضارة وتشريعاً.

وأصبح يمثل ثقلاً تاريخياً لهذه الأمة، يشكل لها أهم سمات هذه الهوية، بل هوية مستقلة.

ولست أود الحديث عن الهوية بقدر ما أود أن أتحدث على الجانب  
المدني في الفكر الإسلامي، وإن كان الأمر لا ينفصل كثيراً؛ ذلك أننا  
إذا فقهنا مقصود الإسلام والمراد منه، ربما تمكنا من فهم الجوانب  
المتعددة التي يمثلها هذا الإسلام.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا  
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [الأنفال: 24]

لو أسقطنا هذه الرؤية المتكاملة عن الإسلام على واقعنا فلا أشك  
في أننا سنجد فيه جواباً عن الكثير من القضايا التي تُطرح اليوم على  
الساحة، ومنها ما يتعلق بالمجتمع المدني.

فهل وُجد في الإسلام جانب يرتبط أو يحاكي هذا الجانب المعروف  
بالجانب المدني؟!!

## أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية الموضوع في كونه قضية الساعة؛ من ناحية ازدياد الاتهامات لكثير من الإسلاميين بالإرهاب، حتى أصبح الأمر "فرّاعة" ترفعها الجهات التي لا تريد للمد الإسلامي أن يأخذ مكانه في المجتمعات المسلمة، فتكيل الاتهامات جزافاً، وتخلط الأوراق بطريقة متعمدة.

ولا يتوقف الأمر عند اتهام الإسلاميين، بل يتجاوز ذلك إلى اتهام الإسلام نفسه، الأمر الذي يزعزع ثقة بعض المسلمين، أو لأقل من لا يعلم من الإسلام إلا اسمه من أبناء المسلمين، مما يدعو بالبحاح إلى توضيح الصورة وجلاء الموقف.

كما نجد ضرورة لإثارة الموضوع من ناحية أن الساحة السياسية أصبحت الآن مفتوحة أمام الإسلاميين بصورة أوسع مما كانت عليه أيام الحرب الباردة، وستتوسع لا محالة لتشمل كل الأقطار الإسلامية، ولاسيما الخجولة منها بتحولاتها السياسية، فهذا الانفتاح يقتضي من الإسلاميين مزيد معرفة بالجانب المدني في الفكر السياسي الإسلامي، وبخاصة بعدما تبين فداحة أخطاء اتجاهات العنف في العمل الإسلامي، وما أحدثته من مفاسد في تمكين الإسلام في دياره وبين أبنائه.

وثمة قضية ملحة في طرح هذا الموضوع، وهي أن المؤسسات المدنية في الفكر السياسي المعاصر لم تحظَ بثقة أبناء المجتمعات الراهنة، ولا سيما بعدما كشفت الديمقراطية الغربية عن وجه قبيح من التسلط قد أبانَ سجناء "أبو غريب" و"غوانتانامو" عن بعض مظاهره، فضلاً عن تمركز المؤسسات الديمقراطية في يد حفنة من السياسيين يتبادلون الأدوار ضمن توازنات مصالحية يضع فيها الصالح العام، وتختلط المصالح الحزبية بالمصلحة العليا، وربما ينشأ مفهوم جديد للمصلحة الوطنية تُختصر فيه بمصلحة النظام، ويولد معها ما يمكن تسميته بالديكتاتورية الديمقراطية.

والسبب في ذلك أن الدولة المعاصرة قد تطورت إلى درجة أن تستبد فيها البراغماتية السياسية -على الرغم من أنها مهمة للمصلحة الوطنية- وتتجاوز إلى تقديم الحزبي على الوطني.

وأما في الفكر السياسي الإسلامي فإن البراغماتية السياسية منضبطة بالمصلحة العليا من جهة، ومؤطرة بالنظام الأخلاقي الإسلامي من جهة أخرى.



### نشوء مصطلح الجانب المدني:

إن المجتمع المدني مصطلح سياسي له دلالات معينة، قد ولد خارج الأدبيات الإسلامية على الرغم من كونه من حيث الماهية والمفهوم موجود فيها، ولكن بغير هذا اللفظ والاصطلاح، ولكي ندرك معناه ينبغي أن نتذكر أن المفاهيم إنما هي ماهيات موجودة في الذهن، ومعاني تحاكي ما يراه الناس ويحيونه، فهي أساس المعرفة. ولكن هذه الماهيات والمفاهيم وما بُني عليها من مصطلحات لا تطرح أو تستعمل حيادية، وإنما تطرح من خلال بيئتها التي ولدت معها، فتأتي مشحونة بمفاهيم بيئية، فيختلط المفهوم المجرد مع مفاهيم البيئة؛ فمن الصعب أن نأتي إلى مفهوم مستورد فنطرحه بها فيه من علائق ترتبط ببيئته، ثم بعد ذلك نتعامل معه على أن هذه العلائق هي جزء من التعريف.

فحين نتكلم عن فكرة ولدت في المجتمع الإسلامي، كالمدارس مثلاً، فإنها لا بد أن تكون قد أحيطت بذيول دينية، فالحديث عنها هو غير الحديث عن الدين، ولكن من سيتحدث عن هذه الفكرة المجردة التي نشأت في البيئة الإسلامية سيذكر معها كل المخاض الديني الذي ولّدها.

كما أننا لو تكلمنا عن مصطلح ولد في المجتمع الماركسي فإن من يعرض هذا المصطلح يجد نفسه مضطراً لأن يعرض الفكرة مع علائقها الماركسية؛ لأنها ولدت في ذلك المجتمع.

فمن غير الصواب أن تعتمد الأفكار والدراسات التي تحاكي المفاهيم المستوردة كما هي، أو لأقل -كي أكون دقيقاً- المفاهيم التي ولدت في غير بيئتنا، ومن غير ثقافتنا؛ لأنها انعكاس لغير العقل المسلم، كما لا يقبل أن نحاكيها محاكاة مطابقة على واقعنا الإسلامي، لما فيها من ذيول بيئتها غير الإسلامية، ولا سيما ما يُعرف بالفلسفة الحاكمة التي تصبغ النظام المعرفي لأمة من الأمم فتمنحه لوناً واحداً. فحين نتحدث عن توزيع الثروة فإن الإسلامي يتكلم بلغة، والماركسي بلغة مغايرة، والليبرالي بلغة أخرى، لكن المفهوم واحد، أما آليات العرض فتختلف لأنها متأثرة بالفلسفة الحاكمة لكل واحد من هؤلاء، وكذلك عندما نتكلم عن المجتمع المدني فهو متأثر في بيئته التي وُلد فيها. لقد ولدت فكرة المجتمع المدني من صميم فكرة التحرر التي صاغها المفكرون العلمانيون الذين أسقطوا فيما بعد حكم الكنيسة الديني، وأقاموا مكانه فكرة المجتمع المدني بسبب استبداد الكنيسة، وكان ذلك فيما يسميه المؤرخون الغربيون بعصر النهضة.

ويمكن أن نجعل من الثورة الفرنسية ميلاداً حقيقياً لمثل المجتمع المدني وقيمه، مع أننا لا نستطيع أن ننكر أن بعض الأفكار القريبة من ذلك قد دُرست من قبل، مع أن بعض الباحثين يرى أن إرهاباتها كانت في الفكر الإغريقي.

والذي نستطيع الجزم به أن الثورة الفرنسية قد أنتجت مجتمعاً مدنياً، وأن هذه الولادة اصطبت بأفكار الثورة الفرنسية العلمانية، الأمر الذي دفع الكثير من الباحثين إلى دراسة هذه الفكرة الوليدة على أنها علمانية النسب مصطلحاً ومفهوماً.

ولاشك في صحة ذلك من حيث المصطلح والتسمية، أما من حيث المفهوم فالأمر مختلف بعض الشيء؛ ولا سيما إذا تذكرنا حقيقة أن العقل البشري يكتنز الكثير من المفاهيم والمعاني المشتركة التي لا يفرد لها باصطلاح خاص، وبعبارة أخرى: إن العمل المفاهيمي للعقل أسرع بكثير من الحركة الاصطلاحية للغة.

يطلق مسمى المجتمع المدني على جملة مؤسسات تملأ المجال العام ما بين الأسرة والدولة، وتُسمى بمؤسسات المجتمع المدني أو تسمى أحياناً بالمجتمع المدني.

فالمجتمع المدني مسرح تبلور فيه أنماط العلاقات الاجتماعية ونحوها، وتتفاعل لثماً الفراغ ما بين الدولة والأفراد، ولما كانت الأسرة هي حافظة الأفراد استعضنا بالأسرة عن الأفراد؛ لأن القضية ليست قضية فرد.. إن الإنسان اجتماعي بطبعه وأصغر لبنة اجتماعية هي الأسرة، فينبغي أن نتعامل مع هذا الموجود البشري بصفته الاجتماعية لا بصفته الفردية.

ولكن لا ينبغي أن يكون هذا على حساب حقوق الفرد، فالفرد له حقوق، ونحن مضطرون إلى أن نتعامل معه بصفته الفردية من أجل أن ينال حقوقه، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نطرح هذه المفاهيم الاجتماعية من خلال الفرد، بل من خلال أصغر وحدة، ألا وهي الأسرة؛ لذلك فإن المجال الذي يطلب أن يُملأ في المجتمع ليكون مدنياً، هو ما بين الأسرة والدولة، ويدخل الفرد في ضمنه ضرورة.

وتشمل مؤسسات المجتمع المدني النوادي الثقافية، والمراكز الثقافية، والأحزاب، والتجمعات، والجمعيات، فكل ما لا يتصل اتصالاً مباشراً بالدولة، وكل ما هو غير حكومي، هو في الواقع من مؤسسات المجتمع المدني.

وبناء على ما سبق فإن المقصود بالمؤسسات المدنية أو مؤسسات المجتمع المدني ما يقابل الحكومي غير المؤدلج، الذي يعبر عن الهوية الجامعة للأمة كلها، وليس الحكومي الذي يعبر عن أيديولوجية الجهة الحاكمة، فمؤسسات المجتمع المدني تتصف بأمرين:

الأول: أنها مؤسسات غير حكومية.

الثاني: أن هذه المؤسسات ليست مؤدلجة، بمعنى أنها لا تعبر عن أيديولوجية الدولة، وإنما تعبر عن الهوية العامة للأمة.

وهكذا فإن المجتمع المدني يتسم بأن مؤسساته مؤسسات غير مؤدلجة للسلطة، فهي مؤسسات وطنية تحاكي الوطن بالجملة، بعيداً عن فلسفة النظام أو فكره أو توجهه السياسي أو الأيدلوجي.

وبالجملة نستطيع أن نقول إن مؤسسات المجتمع المدني:

هي المؤسسات التي تملأ المجال ما بين الأسرة والدولة، وتقوم على أساس من العلاقات الاجتماعية الوطنية، أو العلاقات غير المؤدلجة للسلطة التنفيذية.

فالمجتمع المدني بهذا المعنى - وإن لم أعرفه على طريقة المناطقة بالجنس والفصل وإنما بالمعنى العام - هو المجتمع الذي يقوم على أساس من الرابطة الواسعة التي تتسع لتشمل كل الأديان التي في المنطقة الجغرافية التي عبر عنها هذا المجتمع، والإثنيات، واللغات، والأعراق، والمذاهب، والأطياف السياسية التي تحاكيها تلك المجتمعات.

إن ماهية المجتمع المدني تتسع لتكون أكثر إنسانية وشمولية من الفكر المؤدلج؛ لأنها تستحضر معالم هوية الأمة بكل أخلاطها وأديانها وأعرافها.

وفي واقعنا السوري إن الهوية التي نتكلم عنها يبدو لي أنها تتجاوز الإسلام كما تتجاوز العروبة؛ لأن الأمة التي وجدت على هذه الأرض لا يقل وجودها عن عشرة آلاف سنة، قد تعاقبت على أجيال.. تعاقبت على حضارات.. تعاقبت على موروث بشري هائل.. ففي هذه الأرض اكتشفت النار، وفي هذه الأرض اكتشفت الأبجدية الأولى، وفي هذه الأرض اكتشف العديد من المعادن.

إن الإنسان السوري الذي عاش في هذه المنطقة الطبيعية كان له ثقل حضاري هائل منذ أن حكم الأكاديون.. فالآشوريون.. فالبابليون.. فالآراميون، ثم جاء العهد البيزنطي، فالعهد الإسلامي، وظهر قبل ذلك دور العرب جزئياً وإن كان مشوهاً، ثم جاء الإسلام بعد ذلك.

لن نتكلم في هذه الفقرة عن القضية الروحية التي نعتز بها في الإسلام بوصفه ديناً لنا، أو بوصفه شريعة، أو عقيدة، أو بوصفه مبعث ثواب، على الرغم من أنه أمر نعتز به..

ولكن ستتكلم عن الجانب الحضاري فيه، ففيه يظهر بوضوح مقصودنا من البحث، وهو الجانب المدني للفكر السياسي الإسلامي.

لقد جاء الإسلام بأحكامه وتشريعاته التي كان العمران من أهم غاياتها ومقاصدها، فصهر كل تلك الأثقال التاريخية التي مرت على هذه الأرض في بوتقة واحدة، وصنع منها حضارته العظيمة من خلال تصوره وعقيدته وتشريعه ونظامه الأخلاقي، فبنى على القدر المشترك من ذلك الثقل مع تعاليمه الخاصة به، وأضاف لونه الخاص..

لذلك فالإسلام لا ينفصل عن المعنى الحضاري في هذه البلاد، فهو حضارة جميع الذين عاشوا على هذه الأرض مهما اختلفت لغاتهم، وأعراقهم، وأديانهم، ومذاهبهم، وليس من الغريب القول: إن الإسلام من أهم سمات الهوية السورية.

### صفات مؤسسات المجتمع المدني

تتصف مؤسسات المجتمع المدني بصفات عدة، أهمها ما يأتي:

الصفة الأولى: الفعل الإرادي والتطوعي.

هذه المؤسسات غير رسمية فليست مأجورة، ولا تأخذ موازنتها من الدولة فهي تطوعية، تتسم بالتنظيم المبني على العنصر الأخلاقي السلوكي؛ لأنها تؤمن بالآخر إيماناً واسعاً وتستوعبه، وتريد أن تقيم معه علاقات صحيحة تُنشئ من خلالها عمراً إنسانياً متكاملًا.

الصفة الثانية: الشفافية.

فهي تقوم على أساس من المفاعلة، فلا بد من التفاعل مع مؤسسات المجتمع كافة، بما فيها الرسمية، وتنبع صفة الشفافية من وظيفتها الرقابية على مؤسسات الدولة، فهي من الجهات التي تقوم بدور رقابي على المجتمع ومؤسساته، بما فيها المؤسسات العامة. وتعتمد على النقد البناء وسيلة داعمة في هذا الدور.

الصفة الثالثة: المصداقية.

ينبغي أن تكون مؤسسات المجتمع المدني على مستوى عالٍ من المصداقية؛ لأن المؤسسات المدنية تتصف بالحياد والبعد عن المؤسسة التنفيذية من حيث القرار، وتظهر أهمية المصداقية في تدعيم الدور الرقابي لمؤسسات المجتمع المدني.



### خصائص المجتمع المدني:

بعد أن بينا صفات مؤسسات المجتمع المدني ودورها من خلال تلك الصفات، يحسن أن نذكر خصائص المجتمع المدني؛ لأن عامة هذه الخصائص متولدة عن صفات المؤسسات المدنية ودورها في المجتمع.

وأهم صفات المجتمع المدني ما يأتي:

1- المجتمع المدني يقوم على مبدأ المواطنة فيسود القانون فيه، وسلطة القانون هي الحاكمة، وهي أعلى السلطات، وهذا لا يكون إلا إذا كانت سلطة مستقلة.

2- المجتمع المدني يقوم على مبدأ المحاسبة الشعبية.

3- المجتمع المدني يقوم على مبدأ وحدة الأنا والآخر.

4- المجتمع المدني مؤسس على مبدأ الإنسان، وعلى مبدأ الروح الإنسانية، فيتسع ليتجاوز كل الخلافات البشرية النابعة عن تنوع الأعراق والمذاهب والأديان والمستويات الاجتماعية.

هذه العناصر الأربعة هي أهم خصائص المجتمع المدني على الإطلاق.

ولو أردنا أن نسقط صفات مؤسسات المجتمع المدني وخصائصه على مجتمعنا فسنجد كثيراً من المؤسسات التي تدّعي أنها مؤسسات مجتمع مدني لا تملك من مصداقية النسبة شيئاً، وربما يعود ذلك إلى أمرين:

الأول:

إن ولادة معظم مؤسسات المجتمع المدني التي في مجتمعنا لم تكن ولادة طبيعية، وربما بعضها قام من باب الموضة.

الثاني:

إن أصحابها لم يتخلصوا من أدلتهم، ففي مجتمعنا السوري لا يوجد لدينا ليبراليون، بل يوجد لدينا يساريون ادعوا الليبرالية، وشيوعيون ادعوا الليبرالية، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا دعاة مجتمع مدني على وجه الحقيقة حتى يتخلصوا من الفلسفة الحاكمة لفكرهم السابق، التي لا تزال حاكمة على ثقافتهم، حتى وهم يدعون الليبرالية.

## العلمانية والمجتمع المدني

ذكرنا من قبل أن فكرة المجتمع المدني برزت بقوة مع الثورة العلمانية في عصر النهضة، ومن أجل ذلك أصبح يُنظر إلى المجتمع المدني على أنه نتاج علماني.

وحقيقة الأمر أن هذا المصطلح وُلد من رحم الحرية التي كان ينشدها العلمانيون.

فالمجتمع المدني إنما هو نتاج الحرية وليس نتاج العلمانية، وقد تزامن ذلك مع العلمانية، لكنها لم تكن هي الفكرة المولدة للمجتمع المدني، وإنما الشغف إلى الحرية والتحرر من شعوذة الكنيسة، ومن ممارسة القهر على العقل هو الذي وُلد المجتمع المدني.

فالتحرر والتطلع نحو الحرية أوجد ظاهرة المجتمع المدني المعاصرة.

ولا شك في أن تزامن ولادة المجتمع المدني مع نجاح الفكر العلماني في أوربة كان له أثر ظاهر في إعطاء المجتمع المدني المعاصر مسحة علمانية.

فلا يمكن أن تقطع الوشائج بين العلمانية -وهي الفكر الذي له الفضل الكبير في تحرر أوروبا- والمجتمع المدني المعاصر، ولكن لا يمكن أن نكل كل التناج المعاصر للعلمانية، ولا أن ندعي أن المجتمع المدني لا يكون إلا علمانياً.

إن العلمانية تكاد تكون حلاً وخلاصاً للغرب من استبداد نظام الغيب على نظام الشهادة، ومن استبداد النظام المُغرق في الوحي وتفسير حتى الظاهرة المادية الملموسة المحسوسة بنظام الغيب، فقد كانت اللجنة توزع في صكوك!

كان لابد من التحرر من هذا النظام المُغرق في الغيب، فجاء الفكر العلماني سبيلاً لإنهاء تسلط الغيب السابح في الخرافة، ولكن جاء التحرر بنظام مُغرق في المادية.

إن الحاجات التي ولدت ذلك هي حاجات الحرية فيمكن أن نتصور مجتمعاً مدنياً ليس علمانياً، فحالة الاقتران لا تعني التلازم، فإن اقترنت مفاهيم المجتمع المدني بالعلمانية فلا يلزم أنها علمانية المولد والمنشأ والباعث، وإنما قهر العقل، ووضع الغيب موضع الشهادة هو الذي أدى -كما سبق- إلى سيادة العلمانية في الغرب.

ومع ذلك فثمة مَنْ يرى مِنَ العَلمانيين الذين يتكلمون في الفكر السياسي المعاصر أن الدولة التي تنتشر فيها مؤسسات المجتمع المدني وتسود فيها قيمه، إنما هي الدولة العلمانية.

في الواقع لا أرى هذا شرطاً للمجتمع المدني بقدر ما أرى أنه وصف مقارن لولادة المجتمع المدني المعاصر، وأرى أن الإصرار على ذلك يدخل في العولمة الثقافية التي تريد أن تفرض رأيها ورؤيتها وقناعاتها على البشر جميعاً، وتصدرها على طريقة الكبسولات والسندويش .

ولعل سبب كتابة هذا البحث هو بيان أن المجتمع المدني ليس بالضرورة مجتمعاً علمانياً، وأن الفكر السياسي الإسلامي فيه متسع كبير لمؤسسات المجتمع المدني.

### تطبيقات خصائص المجتمع المدني في الإسلام

ذكرنا من قبل أن أهم خصائص المجتمع المدني قيامه على ما يأتي:

مبدأ المواطنة..

وسيادة القانون..

والمحاسبة الشعبية..

وأنه مؤسس على مبدأ الإنسانية واتساعه للبشر جميعاً.

سنعرض هذه القضايا الأربع على الأدبيات الإسلامية والنصوص الشرعية، لعلنا نستطيع أن نحدد الجانب المدني في الفكر السياسي الإسلامي.

## أولاً - المواطنة :

### مفهومها :

هي علاقة ما بين الفرد والدولة تقوم على أساس الجعل القانوني. من هذا التعريف نستخلص أهم محدداتها وهي: إن منشأ العلاقة قانون لا اجتماعي، إن هذه العلاقة مرتبطة في جغرافية محددة وفي وطن.

فهي علاقة قائمة على أسس متعددة الجوانب: فيها الجانب السياسي، وفيها الجانب الجغرافي، وفيها الجانب الوجداني؛ لأن المواطنة يدخل فيها حب الوطن والدفاع عنه<sup>(1)</sup>، لكن لا تنحصر المواطنة في هذا المعنى وحده، والمواطنة هي ما كان يُسمى في السابق بالتابعة.

ومن الباحثين من يرى أن المواطنة هي الجنسية نفسها، والحقيقة أن المواطنة أوسع من الجنسية، إذ الجنسية من ثمار المواطنة، فعندما تُسلب الجنسية عن فرد لا يعني أن مواطنته في تلك الأرض التي عاش فيها قد سلبت؛ لأن تابعة الإنسان للأحوال المدنية أمر إداري لا تختصر فيه المواطنة، التي تضم جملة التزامات متبادلة ما بين الفرد والدولة.

---

(1) انظر المواطنة، عماد الدين الرشيد (38) فما بعد.

### وثيقة المدينة المنورة:

تجلى مفهوم المواطنة في الإسلام من خلال الوثيقة المدنية التي كتبها النبي ﷺ لما وصل إلى المدينة المنورة فيما بينه وبين من كان في المدينة المنورة، وهي تمثل المرجعية في هذا الأمر؛ لأنها تدل على صورة ناضجة جداً للمواطنة، الأمر الذي جعلها دستوراً لا مجرد أفكار عامة في المواطنة، ونظراً لأهميتها سأورد لها بطولها<sup>(1)</sup>:

( بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: )  
(أنهم أمة واحدة من دون الناس).  
(وأن من تبعنا من يهود فإن لهم النصره والأسوة غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم).  
(وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم).  
(وإن على اليهود نفقتهم، وإن على المسلمين نفقتهم).

---

(1) رواه ابن إسحق من غير إسناد، وأسندها عنه البيهقي في السنن الكبرى (كتاب الديات، باب: العاقلة. 105 / 8)، ورواها القاسم بن سلام في كتاب الأموال (1 / 166، 260) مراسلاً من طريق ابن شهاب. والحديث بهذا اللفظ حسنٌ بطرقه. وانظر التلخيص الحبير لابن حجر (4 / 37).



(وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة).  
(وإن بينهم النصحَ والنصيحةَ والبرَ دون الإثم).  
(وإنه لم يَأثم امرؤٌ بحليفه).  
(وإن النصرَ للمظلوم).  
(وإن اليهود يتفقدون مع المؤمنين ما داموا محاربين).  
(وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة).  
(وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادَه فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله).  
(وإنه لا تُجَار قريش، ولا مَنْ نصرها).  
(وإن بينهم النصرَ على من دهم يثرب).  
(وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم).  
هذه أربعة عشر بنداً كتبها النبي ﷺ ليبين أن دولته قامت على أساس من المواطنة، وليس على أساس الانتفاء الديني.  
وقد ضمت جملة من الإثنيات:  
ففيها تنوع عرقي: بنو إسرائيل والعرب.  
وتنوع قبلي: القحطانيون والعدنانيون.  
وتنوع ديني: اليهود والمسلمون.

بل إن التنوع الديني يتجاوز أهل الكتاب، فقد جاء في الوثيقة:  
(محمد والمسلمون من قريش ويهود ويثرب ومن دخل في  
حلفهم)، وهؤلاء المذكورون أخيراً هم الوثنيون من الأوس  
والخزرج الذين لم يُسلموا بعد وهم مشركون حالفوا المسلمين، فقد  
جعلهم أمة واحدة مع المؤمنين.

إن هذا هو مبدأ المواطنة بصيغته المعاصرة، فالانتماء إلى الدولة  
الإسلامية ليس باعتبار الدين، وإنما باعتبار الخضوع للدستور  
الإسلامي، وسنوسع الحديث عن ذلك في الفقرة التالية إن شاء الله.  
ولو أننا تناولنا في دراسة تحليلية الجوانب المتعلقة بالوثيقة،  
والحقوق المترتبة عليها لوجدناها كثيرة متعددة، فتكشف لنا البنود  
الأربعة عشر عن عدة مجالات:

- ففيها ثلاثة بنود سيادية..
- وأربعة بنود قانونية..
- وأربعة بنود عسكرية..
- وبند واحد اجتماعي..
- وبند واحد دستوري..
- وبند واحد جغرافي.

نجد من خلال هذه البنود أن مفهوم المواطنة في الإسلام يشكل علاقة متعددة الجوانب ما بين الدولة والفرد، تقوم على أساس حاكمية القرآن ومصدره الوحي بوصفه دستوراً للأمة، ويرتبط هذا المفهوم بحدود الدولة الإسلامية الجغرافية، وحدوها السياسية. وهو غير علاقة الأخوة الإسلامية التي لا ترتبط بزمان ولا مكان. وهذا المفهوم المتطور للمواطنة الذي قدمته وثيقة المدينة المنورة لا يكاد يغادر صورة المواطنة بالمفهوم المعاصر، فهو يشبهها إلى حد كبير، وإن كان يختلف عنها في قضية جوهرية هي المرجعية، ففي التصور الإسلامي يشكل الوحي مرجعية المواطنة، وعليه يبنى دستور الدولة.

أما في فكر الدولة المعاصرة فإن العلمانية هي مرجعية المواطنة.

## ثانياً- سيادة القانون في المجتمع الإسلامي :

قبل الحديث عن القانون في المجتمع المسلم ينبغي أن نشير إلى أن الدستور الذي يخضع له المواطنون في الدولة المسلمة هو الدستور الإسلامي، فالجميع مهما اختلفت أديانهم أو أعراقهم يخضعون لدستور مستمد من الأحكام الشرعية، والسبب في ذلك أن الدستور هو المظلة العامة للتشريعات في الدولة، ومنه تنطلق كل القوانين، فلا بد من أن يعكس هوية الدولة.

وأما القانون فهو جملة التشريعات التفصيلية المتعلقة بجوانب الحياة، كقانون الأحوال الشخصية، الذي ينظم العلاقات الأسرية، وقانون العقوبات الذي يفصل في الجرائم ونحوها، والقانون المدني الذي يتولى القضايا المالية المتولدة عن الالتزامات، وقانون أصول المحاكمات الذي يضبط عمل المحاكم والجهاز القضائي، والقانون الإداري الذي يفصل في القضايا التي تتعلق بمؤسسات الدولة الإدارية، والقانون التجاري الذي ينظم قضايا التجارة والتبادل التجاري، وغيرها من القوانين، فهذه تشريعات تفصيلية تنظم قضايا المجتمع، بخلاف الدستور الذي يضم أحكاماً ومبادئ عامة.

وفي الدولة المسلمة يلزم المسلمون بالقوانين الإسلامية، في حين لا يلزم غيرهم من مواطني الدولة بالقوانين الإسلامية، اللهم إلا إذا اختاروا الاحتكام إليها، ويلزمون بقوانين يختارونها بأنفسهم لا تتعارض والمبادئ الدستورية الإسلامية.

فلو سرق يهودي من مواطني الدولة الإسلامية فإنه لا يحاكم بالقانون الذي يحاكم به المسلمون إلا إذا هو أراد، بل يحاكم بما اختاره أهل ملته من التشريعات، لذلك لا تمنعه الدولة المسلمة من أن يأتي بما يخالف الشريعة إذا كان تشريعه يسمح بذلك، كأن يشرب النصراني خمرًا أو يأكل الخنزير، في حين لو كان الفاعل مسلمًا فإن القانون يمنعه من ذلك.

والسؤال الذي يرد في هذا المقام:

لماذا لم يمنع القانون الإسلامي هؤلاء مما يمنع منه عادة رعاياه من المسلمين؟

الجواب ببساطة يكمن في أن الإسلام ينظر إلى التشريع على أنه قضية دينية (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) [الأحكام:57]، فالقوننة والتشريع أمر ديني، ولا يُلزم الإسلام غير المسلمين بقضاياه الدينية، عملاً بقوله تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة:265]، لذلك ترك لهم حرية اختيار القانون والتشريع، خلافاً للدستور الذي تقتضي إسلامية الدولة أن يكون مستمداً من الشريعة الإسلامية.

وأياً كان الأمر فإن القانون يطبق على جميع المواطنين، كلُّ حسبها اختار، ولا يكون تطبيقه انتقائياً بحال أبداً، بل يسود القانون على الجميع.

إن سيادة القانون هي من أهم ما جاء في الفكر السياسي الإسلامي، ولا يمكن أن يُحتزَل القانون بفرد ولا بفئة ولا بطبقة؛ لأنه امتهان للأمة كلها، واختصار لوجودها، ولا يتم تلافي ذلك إلا إذا كان القانون هو السائد، وهو القاضي على الجميع.

ولقد أبصر النبي ﷺ ذلك في قصة المرأة المخزومية، التي رواها الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ:

(أتشفع في حد من حدود الله؟!). ثم قام فاختطب، ثم قال:

(إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،  
وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة  
بنت محمد سرقت لقطعت يدها)<sup>(1)</sup> - يعني ابنة رئيس الدولة-،  
فالقانون يسود في الدولة الإسلامية إلى أعلى المستويات، ولو كان  
المخالف بنت رسول الله ﷺ.

وفي البيان الانتخابي لسيدنا أبي بكر الصديق ﷺ يبين أن الضعيف  
في رعيته قوي حتى يأخذ له حقه، فقد روى ابن عساكر<sup>(2)</sup> أنه قام  
خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ( أما بعد فإني وليت أمركم  
ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وبيّن النبي ﷺ وعلّمنا، فعلمنا أن  
أكيس الكيس التقي، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن أقواكم عندي  
الضعيف حتى أخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى أخذ  
منه الحق. أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت  
فاتبعوني، وإن زغت فقوموني).

---

(1) البخاري في التفسير، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم)، (32881)، ومسلم في

الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، (1688).

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر (30/302).

إن مسألة القوة والضعف في الدولة الإسلامية مرتبطة بالقرب من القانون، فالقريب من القانون الإسلامي ومن التشريع هو المواطن الصالح، وهو مقدم على غيره بمقدار تعبيره عن صلاحية موطنه، وقوله ﷺ: ( لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ) يمثل تأصيلاً لسيادة القانون، وليس مجرد إرهاب قانوني مبكر، بل تشريع مبكر لسيادة القانون؛ لذلك ندرك تماماً لماذا يأتي القبطي من مصر إلى المدينة المنورة يشكو ابنَ عمر بن العاص الذي ضربه لما تسابقت فسبق القبطي ابن أمير مصر فقام فضربه ابن الأمير، وقال: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟! وكأن الأمر يعني هناك تفاوتاً اجتماعياً!!

ولو كنت ابن الأكرمين.. لو كنت ابن أمير مصر.. أنت مواطن، وأنا مواطن.. إننا نستوي في حق المواطنة. فسافر إلى المدينة وشكا ولد عمر بن العاص.

فيطلب أمير المؤمنين والي مصر، فيأتي الوالي ومعه ولده، ويستوثق أمير المؤمنين من القضية.

وكم يأخذ الأمر؟ يأخذ زمناً طويلاً.

وأين يذهب القبطي؟! .... يتسول ليعيل نفسه؟!!



لقد كان ضيفاً على الدولة الإسلامية التي تريد أن تأخذ له حقه،  
ويأخذ القبطي حقه، ولكن يعلن عمر بن الخطاب تأصيلاً لسيادة  
القانون بقوله:

متى استعبدتم الناس وقد ولدتكم أمهاتهم أحراراً<sup>(1)</sup>؟! .  
إن القضية تتجاوز مجرد أن يكون الكلام القانوني أنغماً للتسويق  
وللترويج وللحملات الانتخابية، إنه حقيقة وواقع.

لقد بين الله ﷻ أن العدل من أهم مقاصد الشريعة، وأن الرسل ما  
أُرسلت إلا من أجل هذا، وأن الكتب ما أنزلت إلا من أجل هذا،  
يقول الله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ  
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [الحديد:25]. فالشرائع والتوحيد  
والعقيدة إنما جاءت لتقضي بالعدل بين الناس، ولتقيم القسط.

ولا يتوقف دور العقيدة عند تحقيق العدل، بل يتعداه إلى دعم الحرية،  
يقول الله تعالى: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ  
مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) [البينة:1]، أي لم يكونوا أحراراً حتى جاءتهم  
العقيدة، فالعقيدة جاءت لتحرر البشر، وجاءت لتقيم القسط.

---

(1) ذكر هذا الخبر ابن الجوزي في أخبار عمر، وابن عبد الحكم في فتوح مصر.

ومن أجل هذا فإن العدل والحرية كانا من أعلى مقاصد التشريع،  
وهما أعلى قيم المجتمع المدني.

وقد عبر النبي ﷺ عن سيادة القانون بمواقف كثيرة من سيرته، كان  
منها، أنه لقي سواد بن عمّ الأنصاري ذات يوم ومعه جريدة -  
ورقة نخل - فطعن بها في بطن سواده فخدشه، فقال: يا رسول الله  
أَقْصَنِي - أو أقدني -، فحَسَرَ رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: (اقتص)،  
فلما رأى بطن رسول الله ﷺ ألقى الجريدة وعلق يقبلها<sup>(1)</sup>.

فرسول الله ﷺ وهو قائد الدولة والنبي المبتعث يضع نفسه رهن  
القصاص لرجل مغمور من المسلمين.  
مما سبق كله نتبين أن مفهوم سيادة للقانون على كل المستويات كان  
من أهم سمات المجتمع الإسلامي.

---

(1) أسد الغابة لابن حجر (1/491).

### ثالثاً- مبدأ المحاسبة الشعبية في المجتمع الإسلامي:

إن مبدأ المحاسبة الشعبية من خصائص المجتمع المدني فمؤسساته غير الحكومية تقوم بالمحاسبة والمطالبة ضمن الأسس المرعية في المجتمع.

وقد أرسى الإسلام هذا المبدأ بجملة تشريعات، كان من أهمها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ورد في ذلك عدة أحاديث عن النبي ﷺ منها:

• (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم)<sup>(1)</sup>.

• ( كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنّه على الحق قصراً)<sup>(2)</sup>.  
إن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنح كل شخص حق الرقابة والمحاسبة، بل يجعل ذلك واجباً عليه..

---

(1) رواه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (2169).

(2) رواه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي، (4338).

وقد كان النبي ﷺ يشجع الناس على هذا السلوك، فعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبنى - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد- فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعاً، فقال النبي ﷺ: (على رسلكما إنها صفية بنت حيي).

فقالا: سبحان الله يا رسول الله. قال: ( إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً<sup>(1)</sup>). فالنبي خشى أن يكونا توهما أن معه امرأة أجنبية، فبين أنها زوجته صفية، فأراد الرسول ﷺ أن يحرص فيهم المحاسبة والمساءلة. وكأنه يقول: لماذا لم تسألاني من هذه المرأة التي معك يا رسول الله؟ وهذا لا ريب ما يفيد قوله: ( أنا محمد وهذه صفية )، فإن هذا جواب لسؤال مفترض، وهو كما بينت قبل قليل: من هذه المرأة التي معك يا رسول الله؟

نعم لم يسأل الرجلان، ولكن جواب النبي ﷺ يحرضهما على السؤال، وكأنه يقول لهما:

---

(1) رواه البخاري في الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه، (1930)، و مسلم في السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة، (2175) واللفظ لمسلم.

اسألًا مهما كان الإشكال.. وفي حق أي رجل.. وفي أي مستوى  
كان من مستويات المجتمع.  
ولذلك سادت ثقافة القول المأثور:

### الساكت عن الحق شيطان أخرس<sup>(1)</sup>.

وقد أجدى هذا الأسلوب التربوي النبوي نفعاً في الصحابة وصار  
سلوكاً معتاداً، يبعدهم عن المجاملات التي غالباً ما تكون على  
حساب الحقيقة. وقد نقل لنا التاريخ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما  
بعث إليه بحُللٍ -يعني من الغنائم- فقسّمها فأصاب كل رجل ثوباً،  
ثم صعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا  
تسمعون؟!

فقال سلمان: لا نسمع.

فقال عمر: لِمَ يا أبا عبد الله؟

قال: إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة -يعني من ثوبين-.

فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله، ثم نادى: يا عبد الله فلم يجبه أحد..

---

(1) نقل الإمام النووي عن الأستاذ أبي القاسم القشيري أنه سمع أبا علي الدقاق يقول: (من سكت  
عن الحق فهو شيطان أخرس)، انظر مسلم بشرح النووي (2/20).

فقال: يا عبد الله بن عمر..

فقال: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: نشدتك الله الثوبُ الذي ائتررت به أهو ثوبك؟

قال: اللهم نعم.

قال سلمان: فقل الآن نسمع<sup>(1)</sup>.

هذا التأكيد من أمير المؤمنين على مبدأ المحاسبة الشعبية هو استجابة لما تربي عليه بين يدي النبي ﷺ، وليس غريباً عن عمر، فمنطقي أن يتفاعل الناس على هذا النحو لأنه رضي الله عنه وأرضاه قال لرعيته: أرايتم لو ترخصتُ في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا..

فعاد مرتين أو ثلاثاً.

قال بشير بن سعد: لو فعلت قومناك تقويم القِدْح.

قال عمر: أنتم إذن أنتم<sup>(2)</sup>.

---

(1) صفة الصفوة (1/ 535).

(2) التاريخ الكبير، البخاري، رقم: 1825 والقِدْح: السهم قبل أن يُنصَل.

إنه مبدأ المحاسبة الشعبية لا يمثل إعلان حقوق بل - كما قلت -  
كان إعلاناً واجب اجتماعي، فرضته الشريعة على المسلمين، كلٌّ  
حسب قدرته.

وقد تضخم ذلك عند المعتزلة حتى صار أحد المبادئ الخمسة التي  
قام عليها الفكر الاعتزالي؛ لذلك فليست هذه المبادئ الشرعية مجرد  
إرهاصات للمجتمع المدني، لا بل هو تأصيل شرعي كامل، تسجل  
الشريعة الإسلامية سبقاً فيه.

رابعاً- مبدأ تأسيس الإسلام على البعد الإنساني:

قد يتساءل البعض كيف ينظر الإسلام بوصفه ديناً إلى النفس البشرية<sup>(1)</sup>؟

فهل ينظر إليها باعتبار دينها؟! أم باعتبار عقيدتها؟! أم بأي اعتبار؟!!

للإجابة على هذا السؤال أقول:

ينبغي أن نميز في الإسلام ما بين الدنيا والآخرة:

أما مقياس الآخرة فهو مقياس المتقين، قال الله تعالى:

(وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) [الزخرف:35]

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات:13]

إن الكرامة عند الله للتقوى، وأما التقي في الدنيا فلا مزية قانونية له، فلا يمكن أن يعطى زيادة من الحقوق على غيره، وأما المكانة الاجتماعية فلا منازعة فيها، فالناس تحب التقي وتقدمه على الأقل تقي، وتحب الصالح أكثر من الطالح. هذا وضع اجتماعي وليس وضعاً قانونياً.

---

(1) نُشر في سلسلة البناء والترشيد عدد خاص حول النفس البشرية في الإسلام.



أما أمام القانون - وهذا مقياس الدنيا - فلا يؤثر الصلاح في زيادة الحقوق؛ لأن التقوى مقياس الآخرة، وهي سبب دخول الجنة، وأساس التفاضل فيها.

أما من زاوية المقياس الدنيوي فإن الإسلام ينظر إلى النفس البشرية من خلال أحكام العمران وإقامة البنيان الإنساني في الأرض، فينظر إلى البشر من خلال:

وحدة المنشأ.

تكريم الله للبشر.

عصمة النفس البشرية.

## 1 - وحدة المنشأ.

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: 13].

هذا التنوع تنوع خصوبة تزداد فيه المعرفة البشرية؛ لأن (لتعارفوا) جاءت على وزن لتفاعلوا، وهذا الوزن كما هو معروف يدل على الازدياد، والمعنى: لتزدادوا معرفةً.

فهذا التنوع يكسب البشر خصوبة معرفية.

## 2 - تكريم الله للبشر.

فقد كَرَّمَ اللهُ ﷻ الإنسان، فقال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

[الإسراء:70]

لقد كرمهم جميعاً؛ لأن الروح التي نُفِخَتْ في آدم هي من روح الله، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) [الحجر:29]، فقد سرت الروح التي نفخها الله في آدم، سرت من بعده في أبنائه جميعاً صالحهم وطالحهم.

ومن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان أنه أسجد الملائكة لآدم أبي البشر جميعاً..

فثمة توجه تكريم خاص للإنسان بوصفه بشراً، لذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لما مرت به جنازة قام لها، قالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي.

فقال: ( أليست نفساً )<sup>(1)</sup>.

فهذا الجواب من النبي ﷺ تعليل بأن سبب احترام الجنازة هو كونها نفساً..

---

(1) رواه البخاري في الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (1250)، ومسلم في الجنائز، باب القيام للجنازة، (960).

وهذا يسبغ على نظرة الإسلام للنفس البشرية بعداً إنسانياً عميقاً؛ لذلك يستوي أصلح الناس وأفجر الناس من المسلمين عندما يموت فيما يتعلق بحقوقه، فيصلى عليه مادام مسلماً، ويغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن. لقد عاد إلى الحالة الإنسانية التي يستوي فيها الجميع، فحقوق جثة أصلح المسلمين وجثة أفسدهم سواء، تعامل معاملة واحدة، وإن كان عملها مختلفاً.

إن قيام رسول الله ﷺ لهذا اليهودي وقد كان يعبد مع الله إلهاً آخر، كما بيّن تعالى بقوله: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) [التوبة:30] ليحمل معنى عظيماً يبين موقع النفس البشرية في الإسلام، ومدى تكريمها بغض النظر عن دينها..

وهذا البعد الإنساني هو الذي تتسع فيه رؤية المجتمع والدولة لتغطي كل الأطياف الموجودة من أبنائه ومن كل الشرائح.

### 3 - عصمة النفس البشرية.

الأصل أن الدماء معصومة محقونة، ولا يمكن أن يُنتهك هذا القانون إلا بموجبات شديدة ودقيقة، وقد ذكرها الفقهاء، تساهلوا في أشياء وتشددوا في أشياء أخرى، ولستُ في مجال الحديث عن التفصيلات، إنما المقام للحديث عن المبادئ العامة، كما في قوله تعالى:

( مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ  
أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا  
النَّاسَ جَمِيعًا ) [المائدة: 32]

والتعبير بقوله: (نفساً بغير نفس) كأنه يبين أن موجب الحكم الوارد في الآية: أن في النفس المقتولة روح الله التي سرت من آدم إلى أبنائه، فالعدوان على نفسٍ واحدة كالعدوان على كل الأنفس؛ لذا فإن هذه النفس معصومة الدم محقونة، فلا يمكن أن تنتهك إلا إذا فعلتُ فعلاً تستحق به أن تُنتهك حرمتها وتهدر.

## عود على بدء :

هذه القضايا كلها تجعلنا نقف وقفة دقيقة أمام البعد المدني في الفكر السياسي الإسلامي؛ لأن المبادئ الأربعة التي بنيت عليها فكرة المجتمع المدني وشكلت له هوية وخصائص هي مبادئ أصيلة في الفكر الإسلامي، وليست إرهابيات نحاول أن نقاربهام مقارنة. لقد تبين معنا أن سيادة القانون من الثوابت الشرعية، وأن المحاسبة الشعبية من الثوابت الشرعية، بل والعقدية عند الكثير من الفرق الإسلامية التي ترى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الثوابت العقدية، وليست الشرعية فقط.

كما أن البعد الإنساني في الإسلام واضح للغاية، بل إلى درجة أن النبي ﷺ تآرق بسبب عدم إيمان المشركين، إلى درجة أنه أوشك أن يموت حزناً بسبب ذلك، فجاء القرآن يقول له: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) [فاطر:8].

وأكد ذلك بقوله تعالى:

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)

[الكهف:6].

وأما الحديث عن المواطنة وتجذرها في المفاهيم الإسلامية، فلا أدل عليه من وجود غير المسلمين في البلاد الإسلامية، على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً على خروج الإسلام من جزيرة العرب، لذلك نجد أن الإسلام حين يوجد في أرض يُبقي فيها أبناء الأديان الأخرى، بل ويشركهم في صناعة الحضارة الإسلامية. فلا يزال الهندوس في الهند حتى اليوم، وقد حكمها المسلمون قروناً.

وبقي اليهود مع المسلمين ثمانية قرون في الأندلس، وحين أُخرج المسلمون تحت وطأة محاكم التفتيش خرج اليهود معهم، ومن حاخامات اليهود من يقول: إن اليهود مدينون للإسلام بأنه حفظ دماءهم، واحترمهم لما قامت محاكم التفتيش.

فقد احتضنهم المسلمون في المغرب العربي، وبقوا حتى قامت دولة الكيان العنصري الصهيونية في فلسطين منتصف القرن العشرين، فانصرف إليها معظم يهود الجزائر، ومعظم يهود تونس، والكثير من يهود المغرب.

لقد كان المجتمع الإسلامي الأول مجتمعاً مدنياً بامتياز، وكانت هذه المبادئ التي يتحدث عنها الناس اليوم من تعددية بكل أطيافها: العرقية، والدينية، والفكرية.. وغيرها كانت متوافرة فيه، وكان الإسلام يقبل بها، ويرى أنها جزء من خصوبة المجتمع، ويتعامل معها بوصفها جزءاً من ثراء الدولة وثروتها.

لقد وجد ذلك في عصر الصحابة، فقد انقسم الصحابة تجاه كثير من المسائل حتى في الجانب السياسي، فتشكلت فيه مستويات من المعارضة السياسية.

ولا شك في أنه قد اغتيلت بعد الصدر الراشدي كثيرٌ من المبادئ الإسلامية، ولكن ذلك العدوان لا يمثل الفكرة الإسلامية، ولا يعبر عنها.



وأخيراً:

بعد هذه الجولة يمكن أن يطرح الإشكال الآتي:

إن المجتمع المدني لا يوجد فيه إكليروس ديني، ولا جسم كهنوتي، كما لا يحكمه الجسم الديني، بل يمثل هذا الجسم الديني جزءاً من أهم أركانه التي تدعم الأخلاق، فكيف نقول إن المجتمع الإسلامي في تأصيله وفي تطبيقه - زمن النبوة والصدر الراشد - كان مجتمعاً مدنياً، مع أنه مجتمع يحكمه القرآن والسنة ومفاهيم الغيب الدينية؟! إن الإجابة عن ذلك في أمرين:

الأول:

إن المجتمع المدني الغربي مجتمع لا تحكمه المفاهيم الدينية، لكن هذا لا يعني أن فكرة المجتمع المدني لا تقبل التطبيق في مجتمع تحكمه الفكرة الدينية؛ فهذا التعميم نابع من كون المجتمع الغربي الذي وُلد فيه المجتمع المدني المعاصر مجتمعاً علمانياً، وقد سبق الحديث عن ذلك من قبل.

## الثاني:

إن من غير الإنصاف أن ننظر إلى الإسلام على أنه دين، وأن تعاليمه مجرد طقوس.

إن الإسلام نظام حياة، فيحكم الناس بتشريعاته التي تمثل الجانب القانوني بكل أبعاده وجوانبه، وفيها ما ينظم شؤون الدنيا، وفيها ما ينظم أمور الآخرة.

إن تصور أن الإسلام دين محض هو جناية على الإسلام فالإسلام نظام اقتصادي.. ونظام سياسي.. ونظام اجتماعي.. ونظام ثقافي.. ونظام تشريعي.. ونظام إداري.. وهو مع ذلك كله دين وعقيدة. إن أهم ما ينبغي أن يعيه المسلمون، وهو ما تقتضيه مبادئ التحرر والاستقلال أننا:

لسنا مضطرين لأن نتقمص الرؤية الغربية للمجتمع المدني. وأنا لسنا مضطرين لأن نتقمص الرؤية العولمية التي يحاول مفكرو الغرب وساسته أن يروجوا لها بين فاقدي الهوية. لقد ترك لنا أسلافنا هوية مستقلة، وثقلاً حضارياً فيه قواعد الإفادة من إنجازات الآخرين من غير أن نتعيش على موائدهم.

فهرس

7	المؤلف في سطور
9	مقدمة المؤلف
13	مدخل
15	أهمية الموضوع
17	نشوء مصطلح الجانب المدني
24	صفات مؤسسات المجتمع المدني
25	خصائص المجتمع المدني
27	العلمانية والمجتمع المدني
30	تطبيقات خصائص المجتمع المدني في الإسلام
31	أولاً- المواطنة
36	ثانياً- سيادة القانون في المجتمع الإسلامي
43	ثالثاً- مبدأ المحاسبة الشعبية في المجتمع الإسلامي
48	رابعاً- مبدأ تأسيس الإسلام على البعد الإنساني
54	عود على بدء
57	وأخيراً

## إصداراتنا :

### أ.د. عماد الدين الرشيد

العلاقات الداخلية في الأسرة	أسس الزواج	الزواج في ضوء الكتاب والسنة
الصيام بعث الأمة الدائم	اليهود تحت المجهر	العلاقة بين الأبوة والبنوة
الخلافات الزوجية	رفقات العبد	العزوبة إلى أين..
المرجعية	التأويل	الجانب المدني في الفكر السياسي الإسلامي
القدس	الإبداع	نقد المتن
الأسوة الحسنة	البدعة	الدراما في النص القرآني
أثر أفلام الكرتون في تربية الطفل	ثقافة الخطيب	الإعلام المعاصر
	الحج	المخج
		الحرية في الإسلام

### الأستاذ معاذ الخطيب

عشر نقاط تمنع اختلال الأسرة	في درب الزواج	جمالية الإسلام
رمضان.. حياة بعد ضياع	الرأي العام في القرآن الكريم	الهندسة البشرية
ضمانات اجتماعية	رحلة مع المراهقة: العادة السرية	لا حياة من دون أخلاق
	قل هذه سبيلي	

### أ.د. عيد الكريم بكار

كيف نرتقي بأنفسنا	مواجهة مع المراهقة	هكذا تكون الأمهات
الفرصة الذهبية	النضج العقلي	وهكذا يكون الآباء
كيف نرتقي بفكر أبنائنا	التربية بالحوار	التوازن في حياة المسلم
تحسين السلوك الشخصي	أدب الزمان	تنمية الشخصية
نهضة أمة	ثقافة الشباب	وضوح الرؤية
وهكذا يكون المرءي	المسؤولية	لتواصل جيداً مع من نحب
الشباب والمستقبل	العدوانية	كيف تقرأ كتاباً
تدعيم الذات	محمد خاتم النبيين	الكذب عند الأطفال
العقل المفتوح	خالد بن الوليد	السعادة
لمسات	المسلم الإيجابي	البناء في القرآن الكريم
	صلاح الدين الأيوبي	لماذا تتصدع البيوت
	البناء النفسي لدى الشباب	

شيخ القراء كريم راجح	دروع الإمام
أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي	الحقيقة النسبية
د. نواف ترووري	الجهاد بالمال في سبيل الله
فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب	الاختلاف: أسسه وآدابه..
فضيلة الشيخ عدنان السقا	القيم الروحية وأثرها على العمل الخيري.
فضيلة الشيخ عدنان السقا	الحوار الهادئ
الخطاط: عدنان الشيخ عثمان	القيم الجمالية والتربوية في فن الخط العربي
أ. خير الدين وانلي	مولد المصطفى
أ. مصطفى أحمد الزرقا	سورة العصر

## قريباً

### أ.د. عماد الدين الرشيد

وطني	الحب في كتاب الله	الآياتية..
مفهوم الديمقراطية	صناعة المرجعية	استثمار طاقة البالغين في التنمية
الأمن الاجتماعي	أثر علوم الحديث في حفظ ثقافة الأمة	

الثقافة العربية	أ. أحمد مظهر العظمة
في مسجد رسول الله	أبو الحسن الندوي
نحو حياة مثلى	العلامة أحمد مظهر العظمة
حضارتنا	العلامة أحمد مظهر العظمة

### سلسلة البناء الأدبي:

ما عندكم ينفد..	أ. معاذ الخطيب
فتح الأندلس	د. عماد الدين الرشيد
رحيق الروح	منار أم الهدى كعيد

### سلسلة البناء المنهجي:

المنهجية	أ.د. عماد الدين الرشيد
مناهج البحث العلمي	أ.د. عماد الدين الرشيد
أصول الفقه	أ.د. عماد الدين الرشيد
أصول الحديث	أ.د. عماد الدين الرشيد
تاريخ التشريع	أ.د. عماد الدين الرشيد
الفقه المقارن	أ.د. عماد الدين الرشيد
مقاصد الشريعة الإسلامية	أ.د. عماد الدين الرشيد

خزائن

للطباعة والنشر  
سورية - حمص

سلسلة  
مفاتيح السيرة

خوارزمية

للطباعة والنشر  
سورية - حمص

سلسلة  
تفاهيم أرسية